مقاربة الاصطفاء في منهجية القرآن الكريم
-دراسة تاريخية مقاصدية-

The Approach of Istifâ in the Methodology of the Holy Qur'an:
A Maqasidi Research
muncid ebubekir

10.35781/1637-000-138-002

د. منجد محمد رضوان أبو بكر*

*أستاذ مساعد في التفسير وعلوم القرآن
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة قطر.

الملخص:

المتتبع لآيات القرآن الكريم مكيِّها ومدنيها ينكشف له حضور مشروع الخلافة فيه بصورة كبيرة، وعبر أدوات متعددة، يهدف البحث لتسليط الضوء على واحدة من هذه الأدوات التأسيسية؛ وهي استدعاء النص الكريم لمصطلح الاصطفاء في سياقات خاصة ودقيقة ليكشف عن انتخاب الشارع الحكيم لخمسة عناصر مهمة جداً لتحقيق مشروع الخلافة الإسلامية الحاكمة بما أنزل الله، وبدراسة متأنية يتبين أنه لا يمكن الاستغناء عن أيٍّ منها لتتميم الصورة الكاملة للمشروع الرباني القديم، وهي:

1. الدين متمثلًا بالكتب السماوية الحاكمة بنصوصها لكل عناصر المشروع.
2. جبريل عليه السلام حامل الدين والمشروع من الله تعالى إلى خلقه.
3. الأنبياء والرسل وهم المحمول إليهم الدين والمشروع برمته.
4. ورثة الأنبياء الذين يحملون الدين والمشروع ليكملوا المسيرة.
5. العاملون لإعداد وخدمة أرض المشروع الإسلامي الكبير، أرض الخلافة.

خمسة تظافرت معاً في منظومة عمل مشترك لتحقيق أحد أهم مقاصد الشارع، ظهرت للباحث عبر دراسة استقرائية لمصطلح الاصطفاء، مشفوعة بتحليل تاريخي ولغوي وبلاغي، ومختومة باستنباط النتائج والمقاصد.

كلمات مفتاحية: الاصطفاء، الخلافة، منهجية القرآن، التفسير المقاصدي، الدراسة التاريخية.

ISSN : 2410-1818

The Approach of Istifâ in the Methodology of the Holy Qur'an: A Maqasidi Research

muncid ebubekir

Apstract:

A comprehensive examination of both Makkan and Madinan Qurʾānic verses reveals the pervasive presence of the Divine Khilāfah (vicegerency) project throughout the Qurʾān, articulated through diverse linguistic and conceptual mechanisms. This research highlights one of the foundational instruments underpinning that project: the Qurʾān's deliberate invocation of the term al-Iṣṭifāʾ (Divine Election) in precise theological and historical contexts. Through this concept, the Qurʾānic discourse discloses the Wise Lawgiver's election of five indispensable elements essential for realizing the Divine project of *ḥākimiyyah*—the governance of humankind in accordance with Divine revelation.

A meticulous exegetical and analytical approach demonstrates that these five elements:

(1) religion as embodied in the revealed scriptures,

(2) Gabriel as the conveyor of revelation,

(3) the Prophets and Messengers as recipients of the Divine mandate,

(4) the heirs of the Prophets as continuators of that mission,

(5) the laborers preparing the physical domain of the Islamic Khilāfah—operate synergistically to fulfill the higher *maqāṣid* (objectives) of the Sharīʿah. The study employs an inductive method of analyzing the Qurʾānic usage of *al-Iṣṭifāʾ*, supported by historical, linguistic, and rhetorical analysis, and concludes with a synthesis of its key findings and teleological implications.

Keywords:

The Qurʾānic Concept of al-Iṣṭifā, al-Khilāfah, Divine Election, Maqāṣid-Oriented Tafsīr, Historical-Critical Analysis

ISSN : 2410-1818

المقدمة

التفسير المقاصدي اتجاه في تفسير القرآن يكشف عن الغايات التي أنزل القرآن لأجلها، ويبحث في معاني ألفاظ القرآن الكريم وتوسيع دلالاتها اللغوية، مع بيان الحكم والغايات التي أنزل القرآن لتكريسها، وشرعت من أجلها الأحكام، سواء على وجه العموم أو بشكل خاص [1].

ويمكنني القول بأن التفسير المقاصدي بدأ مع التكوين الأول للإسلام وهي التي حملت ابن عباس على النظر لمآلات ومقاصد سورة النصر، فلم يقف عند منطوقها وظاهر دلالات ألفاظها، ومع ظهور علم الفقه وأصوله تطور الكلام في المقاصد وتبلور، وبرز الاهتمام به لا سيما في الدراسات القرآنية، حتى إن بعضهم أفردها في فصول خاصة، كما فعل الغزالي (ت:505هـ) في كتابه الجواهر، والعز بن عبد السلام (ت:577هـ) في قواعد الأحكام، ولابن الخطيب الفخر الرازي (ت:606هـ) في مفاتيحه إشارات مهمة كما تعليل بدأ سورة الأنعام بالحمد [2]، وكان للنجم الطوفي (ت:716هـ) عناية فائقة في اعتبار المقاصد والمصالح في مؤلفاته، ولا شك فإن موافقات الشاطبي (ت:790هـ) تعج بالنظرة المقاصدية لا سيما في تأملاته واستنباطاته القرآنية، وفي خطوات مهمة في توظيف علم المقاصد في التفسير ظهرت عناوين لبعض المؤلفات التفسيرية، مثل الفيروز أبادي (ت:817هـ) في دُرِّه النَّظيم [3]، وأهم منه كتاب البقاعي (ت:885هـ) مصاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السور.

توسع المتأخرون في الخوض بمقاصد القرآن العامة والخاصة في مصنفاتهم، ومن أبرز المهتمين به الشيخ عبد الحميد الفراهي (ت:1930م) في نظام القرآن، ومحمد رشيد رضا (ت:1935م) وعموم مدرسة المنار، ومن أبرز المهتمين بهذا النوع من التفسير ابن عاشور (ت:1973م) في التحرير والتنوير، لا سيما في مقدمته الرابعة، ومثله محمد باقر الصدر (ت:1980م) في مدرسته القرآنية.

ودراستي هذه على طريقتهم لتكشف عن مقاصدية القرآن الكريم وتدرجه الحكيم في توظيف مصطلح الاصطفاء فيما يخدم مشروعه الإصلاحي العظيم، حيث ورد المصطلح للدلالة على اختيار الله لخمسة أشياء تتظافر بصورة منهجية ومتدرجة ومتوازنة لتحقيق مقصد الخلافة وبناء دولة الإسلام، والتي لابد منها لإقامة شعائر الدين.

(1) التفسير المقاصدي، أحمد المصري، عدد 39، ص: 1679.

(2) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، ج: 6، ص: 475.

(3) كأنه مفقود، فلم أجده مع كثرة البحث عنه.

ISSN : 2410-1818

مشكلة الدراسة وسؤالها الرئيس:

تشتغل الدراسة بالبحث عن مقاصد انتخاب مصطلح الاصطفاء في القرآن الكريم وتسلسله التاريخي، والذي أنتج أسئلة فرعية، منها: كيف ورد المصطلح، ولأي شيء، وما الغايات من تلك الاصطفاءات، وما علاقة الاصطفاء بمشروع الخلافة في الأرض، فقد لفت نظر الباحث حساسية المواطن التي حضر فيها مصطلح الاصطفاء؛ لجمعها بين العمل التشريعي والسياسي والاجتماعي، والتي تظافرت جميعًا لخدمة المشروع الإسلامي الكبير.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

1. مناقشة مسألة مهمة متعلقة بالمقصد الكبير من خلق البشر وهو مقصد الخلافة.
2. تتبع مصطلح الاصطفاء بمنهجية استقرائية تحليلية كما لم يفعل باحث من قبل.
3. التأكيد على القيمة العليا للتفسير المقاصدي وصلته الوثيقة بواقع الناس واحتياجاتهم.
4. بيان العلاقة الوطيدة بين التاريخ والجغرافيا والإنسان، فهي خليط لا بد له من التوازن لينتج عنه بناء الأمم وصناعة الحضارات.
5. بيان أن الكون الذي خلقه الله تعالى متكامل ومتوازن ومنسجم بكل أجزائه بصورة تحقق المقاصد التي أرادها الشارع الحكيم من تكوينه وإيجاده.

أهداف البحث:

1. تحليل مصطلح الاصطفاء في القرآن الكريم والمقارنة بينه وبين ما يظن مرادفًا له، بما يكشف عن الوظيفة الدقيقة التي حضر المصطلح لإدائها في السياق القرآني.
2. بيان التناغم والتكامل بين العناصر التي اصطفاها الله تعالى وكيف تظافرت بصورة منطقية ومتسلسلة لتحقيق مقاصد الشارع الحكيم من الخلق.
3. بيان قيمة التفسير المقاصدي وأثره في الكشف عن حقائق الإسلام وتصوراته الكبرى.

منهجية الدراسة:

قامت الدراسة على منهجية الاستقراء التام لمصطلح الاصطفاء في القرآن الكريم، ودراسة كل المواضع دراسة تحليلية لغوية وبيانية، مع الحرص على التتبع التاريخي للمصطلح في تنزيله على العناصر التي كانت موضع الاصطفاء، منذ خلق الله الخلق وحتى تنزل القرآن الكريم، ثم استنباط أهم الفوائد والدروس والنتائج من هذه الدراسة التي حرصت على أن تكون مقاصدية واقعية.

ISSN : 2410-1818

الدراسات السابقة:

1. "الاصطفاء والمصطفون في القرآن الكريم"، لحسن الصفار في موقعه الالكتروني ناقش الموضوع بطريقة وعظية وسرد قصصًا أقرب للأساطير بغير توثيق، ليصل لاصطفاء آل البيت لحماية الدين وحراسة العقيدة[1].
2. "مبدأ الاصطفاء في القرآن الكريم" ليوسف الحزيمري، في موقع إلكتروني اسمه (حراء)، والنتيجة أن الاصطفاء آدم ونوح عليهما السلام بيان لوحدة الإنسانية، وآل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام بيان وحدة النبوة والرسالة[2].
3. "مفهوم الاصطفاء في القرآن" لسامر اسلامبولي والنتيجة أن الاصطفاء في القرآن في صورتين: للنبوة والتكليف، واصطفاء للعباد الصالحين ليكونوا أئمة هدى[3].

أما دراستي فهي استقصائية وموضوعية ومقاصدية، تسهم في الكشف عن طريقة القرآن في عرضه لغاياته الكلية عبر انتخابه للمصطلحات المناسبة وتنزيلها في المواضع المناسبة، وأنها طريقة قرآنية ثابتة.

مخطط البحث:

جاء البحث في مقدمة ومبحثين اندرج تحتها مطالب، ثم كانت الخاتمة وفهرس المصادر، على النحو التالي:

المقدمة: وفيها مشكلة الدراسة وأهميتها وسبب اختيارها، وأهدافها ومنهجيتها والدراسات السابقة.

المبحث الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي لمصطلح الاصطفاء والفرق بينه وبين نظائره.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي لمصطلح الاصطفاء.

المطلب الثاني: الفرق بين مصطلح الاصطفاء ونظائره كالاجتباء والاختيار والاتخاذ.

(1) https://www.saffar.org/?act=artc&id=893

(2) https://hiragate.com/25987/

(3) https://bit.ly/46ZIogB

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني: المصطفونَ في القرآن الكريم، ومقاصد الاصطفاء.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: محاولة تعيين الأمة التي آتاها الله تعالى ما لم يؤت أحدًا في آية (المائدة: 20).

المطلب الثاني: محاولة تعيين العباد الذين اصطفاهم الله تعالى في آية (النمل: 59).

المطلب الثالث: أدلة أن آل عمران في آية الاصطفاء (آل عمران:33) هم آل عيسى عليه السلام.

المطلب الرابع: تعليل حضور اسم النبي نوح عليه السلام في آية الاصطفاء (آل عمران:33).

ISSN : 2410-1818

المبحث الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي لمصطلح الاصطفاء والفرق بينه وبين نظائره

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي لمصطلح الاصطفاء

الاصطفاء من مادة صفا، التي حضرت في القرآن الكريم في (18) موضعًا، اثنان منها اسمان؛ فأمَا الصَّفا فهو اسم لموضع مخصوص في مكة، وهو شقيق المروة، والثاني الصفوان أي: الحجر الأملس، والثالث في وصف عسل الجنة بأنه نقي من الشَّوْبِ والكُدورَةِ، والباقي بمعنى الاختيار للشيء لصفائه من العيوب وفضله على نظائره، خلا أربعة مواضع منها لتنزيه الله تعالى عن الولد وتحديدًا الإناث، ونفي الأنوثة عن الملائكة، قال ابن فارس: "صفا أصلٌ واحدٌ فقط يدلُّ على الخلوص من الشَّوب. والصَّفاءُ ضدُّ الكَدَرِ، ويقال: لكَ صَفْوُ هذا الأمرِ وصِفْوته. والصَّفِيُّ والصَّفِيَّة: ما يصطفيه المرء لنفسه، ومنها النّاقةُ الكثيرة اللّبَن، والنَّخْلة الكثِيرةُ الحَمْل، والجمع الصَّفَايا" [1].

وقال العسكري: الفرق بين الاصطفاء والاختيار: "الاختيار للشيء أخذ خير ما فيه في الحقيقة، أو خيره بالنسبة لك، والاصطفاء أخذ الصافي منه، ثم كثر فاستعمل أحدهما في موضع الآخر، واستعمل الاصطفاء فيما يكون مشوبًا وغير صافٍ حقيقةً" [2]. وقريب منه الرَّاغب الأصفهاني [3].

وخلاصة الأمر فالمعنى الاصطلاحي للاصطفاء هو: اختيار الشيء بعد تنقيته وتطهيره ليكون صالحًا للقيام بوظيفة مهمة وغاية كريمة، فالاصطفاء لا يراد لذات المصطفى، ولا لمحبة المصطفي له، وإنما لمقصد مهم وغاية ضرورية، مع كونه نقيًا طاهرًا في نفسه وعظيمًا في قدره.

المطلب الثاني: الفرق بين مصطلح الاصطفاء ونظائره كالاجتباء والاختيار والاتخاذ

يظهر مما سبق القرب الكبير بين مفهوم الاصطفاء والاختيار والاجتباء والاتخاذ، ولا ترادف، وهو فيما أحسب، وكما تبين فالاصطفاء لأي شيء لابد له من شرطين؛ أنه شريف وعظيم ف ينفسه. وأنه لمقصد مهم وغاية عظيمة، أما الاجتباء فيكون لذات المجتبى وإن لم يكن كذلك في نفسه، ويلزم من الاجتباء القرب، ولا يلزم ذلك في الاصطفاء، وقريب منه الاختيار لكن الاختيار لا يلزم منه الصفاء والنقاء والطهارة، والفرق بين الاجتباء والاختيار "أن الجباية الجمع والضمُّ، لذا يسمون الجابية للمحل الذي يجتمع فيه الماء، والآية الكريمة التي تشير إلى الاجتباء فيها معنى الجمع والضمّ والتقريب

(7) معجم مقاييس اللغة، أحمد ب زكريا ابن فارس، (295/3).

(8) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص: 29.

(9) معجم مفردات القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، ص: 488.

ISSN : 2410-1818

أي شدة القرب من الله سبحانه وتعالى. أما الاختيار ففيه الانتقاء للأفضل لأن فيه معنى خَيَر، وليس فيه معنى الضم والقرب، فإذا يريد الإشارة إلى الخيرية فإنه يستعمل يختار، وإذا يريد الجمع والتقريب يستعمل الاجتباء"[1].

أما الاتخاذ فمن أخذ أي تناول كقوله تعالى: ﴿لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف:77)[2]، وهو غالباً لغاية ومقصد بصرف النظر عن قيمته، ولا يلزم له أن المُتَّخَذَ عظيمٌ في نفسه، والمهم أنه يحقق المقصد، وهو ما يفسر التعبير عن الشهداء بالاتخاذ في (آل عمران: 140)، فلعل مشيئة الله تعالى تتعلق بأن يتخذ بعض الأطفال أو النساء أو المرضى أو بعض من لم يأخذوا بالعدة للجهاد في سبيله، مع توفر قدر من الإيمان في نفوسهم، فيتخذهم شهداء لتحقيق غرض ومقصد كبير، وهو ما يجيب على شبهة: هل يوجد ظلم في تقدير الموت أو القتل لمثل هذه الفئات؟

قال الراغب: والاتخاذ أخذك للشيء لأمر مستمر مثل الدار للسكن، أي يتخذها مسكنًا، والدَّابة يتخذها للركوب، ويكون الاتخاذ التسمية والحكم، ومنه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ (الفرقان:3)، أي سموها بذلك الاسم وحكموا به لها [3]. وكذلك مثل هذه الفئات من المؤمنين يستعملهم ربهم لغرض كبير ويسميهم شهداء، وقد يرجئ بعض عباده المجاهدين فلا يتخذهم، فالاتخاذ في أصله للأشياء الاستعمالية لتحقيق مقصد معين، ولا شك فالموت بداية للمؤمن وليس النهاية، ينتقل به لما هو أوسع وأجمل وأحسن، وعليه فهنيئًا لمن يتخذه الله تعالى في الشهداء.

وبعد السبر لمواضع الاصطفاء تبين لي أنه لخمسة أشياء فقط، وأنها جميعًا مُهدَّفة ومقصودة ولها صلة بمشروع الخلافة في الأرض، وإقامة الدين، وتحقيق العبودية لله تعالى، ولم يشذَّ منها شيء عن ذلك.

(10) لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، فاضل صالح السامرائي، ص: 338.

(11) مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ص: 8.

(12) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن الكريم، ص: 29.

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني: المصطفونَ في القرآن الكريم، ومقاصد الاصطفاء

أولًا: الدين: لقوله تعالى حكاية عن وصية إبراهيم عليه السلام لذراريه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (البقرة:132). وأدلة أنه المختار المجتبى في الكتاب والسنة عديدة، وتكفي الإشارة إلى أن كلَّ الأنبياء بعثوا بدين الإسلام من أولهم إلى آخرهم بلا اختيار ولا ترخيص؛ فالدِّين عِنْدَ اللَّهِ الإسْلام، ومن يَبْتَغِ غَيْرَه فَلَن يُقْبَلَ اللّه مِنْهُ وسيكون فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين[1] .

ثانيًا: الملائكة: التي تحمل وحي الله تعالى للأنبياء: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً**﴾ (الحج:75). وهي وظيفة جبريل عليه السلام: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**﴾ (الشعراء:193)، وبعض الملائكة الكرام كما في الحديث أن ملكًا خاصًا نزل بخواتيم سورة البقرة [2]، ولا يدخل فيهم الملائكة التي لا تحمل الرسائل، كالمقاتلين مثلًا.[3]

وبالعودة لآيتنا في سورة الحج فهي تعقيب على أن جمهور الناس يجهلون عظمة الله، وأنهم لتمام سخف عقولهم عبدوا آلهةً أدنى وأحقر من أن تخلق ذبابة، وكلُّ ذلك ناجمٌ عن عدم تقديرهم لله حق قدره، فاصطفى الله تعالى من خلقه من يرشدون الخلق إلى ربهم، ولأمر ما كانت القداسة في كتاب الله تعالى لثلاثة أشياء فقط:

أولًا: الله عزَّ وجلَّ هو القدوس، وذلك في موضعٍ واحد في سورة الحشر.

ثانيًا: جبريل عليه السلام المصطفى من الملائكة لحمل أمانة الدين، وذلك في أربعة مواضع.

ثالثًا: المسجد الأقصى وأكنافه، وهو مركز المشروع الإسلامي، وصرَّح بقداسته في ثلاث آيات [4].

---

(13) قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوان لعلات، الأمهات شتى والدين واحد)، أي: أبناء ضرائر، إخوة من أمهات شتى، والأب واحد، والأمهات الشرائع، والدين الإسلامي هو الأب. أخرجه البخاري في صحيحه، باب ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾، كتاب الأنبياء، رقم الحديث(3259)، ص: (1270/3).

(14) أخرجه مسلم في صحيحه، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم الحديث (806) ص: (554/1).

(15) جزء من كتاب مباحث في علوم القرآن، مصطفى التميمي، ص (77-109).

(16) روح القدس أصل الطهارة والنقاء وهو جبريل عليه السلام، وقيل غير ذلك، ولا يلتفت إليه، وكان حضوره في ثلاث آيات: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة:88) و﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة:253) و﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (المائدة:110)، والرابع لسيدنا رسول الله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ

ISSN : 2410-1818

ثالثًا: الأنبياء والرسل: وهي الخطوة الأولى في التكليف وصناعة العمل الرسمي الواقعي على الأرض والذي بدأ بقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾ (الحج:75). وقوله: ﴿**يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي**﴾ (الأعراف:144)، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ**﴾ (ص:47)، ولهذه الآية خصوصية لابد من الوقوف عليها، وهي تتحدث عن الخليل إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب أولي الأيادي والأبصار، وهم الذين أخلصهم اللّٰهُ بخالصةٍ ليست لغيرهم وهي ذكرى الدَّار:﴿**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (47)**﴾ (ص)، ولو كانت لغيرهم كما هي لهم فلا معنى للتعبير بإخلاصهم بها، أكثر المفسرين جعل المعنى في تذكر اليوم الآخر، قال الطبري: هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها كثيرًا في الدنيا، وأطاعوا اللّٰه واتقوه؛ وقد يدخل في وصفهم أيضًا أنهم دعاة إلى اللّٰه وإلى الدار الآخرة، لأن ذلك من الطاعة والعمل للآخرة[1]. ومثله ابن كثير[2]، والزمخشري[3]، وتابعه البيضاوي وزاد: "التعريف في ﴿**الدَّارِ**﴾، للإعلام بأنها الدار الحقُّ، وأن الدنيا معبرٌ" [4]، ورجح الكوراني أنها في تذكيرهم الناس بالآخرة وتزهيدهم بالدنيا، وهو أحسن عنده لأن التَّكميل يستدعي الكمال [5].

واستدرك الزمخشري ونص على احتمال آخر وهو أن الذكرى في الدار هي الثناء الحسن والطيب في الدنيا، كما أنه لسان الصدق الخاص بهم وليس لغيرهم [6]. وقريب منه الصَّفدي: "هو ذكرى هذه دار الدنيا الموجب للسلامة في الدار الأخرى" [7].

بِالْحَقِّ﴾(النحل:102). قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ﴾ (المائدة:21)، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه:12)، و ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (النازعات:16).

(17) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، ص: (123/12). قال ابن الجزري: واختلفوا في ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ فقرأ المدنيان ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بغير تنوين على الإضافة وبالتنوين قرأ الباقون. محمد بن محمد بن محمد بن علي ابن الجزري، نشر القراءات العشر، لابن الجزري، ص: (596/4).

(18) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ص: (123/6).

(19) ينظر: الكشاف للزمخشري، ص: (99/4).

(20) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ص: (615/4).

(21) ينظر: غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، ص: (323/4).

(22) الزمخشري، الكشاف، ص: (99/4).

(23) كشف الأسرار وهتك الأستار، جمال الدين يوسف الصفدي، ص: (554/3).

ISSN : 2410-1818

ولأن نبي الله إبراهيم عليه السلام هو النبي الذي يُجمع عليه الناس كلهم ويعظمونه، لا سيما الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية)، وهي خصيصة له ولأسحق ويعقوب عليهم السلام، وليست لأي نبي سواهم البتة، لذا فالذي يغلب على ظن الباحث أنَّ من أهم أسباب هذا الذكر الحسن الوظيفة العظيمة التي قام بها في موضع سكناه في بيت المقدس بعد نجاته من نار العراق، وهو من أهم الأسباب الدافعة لأتباع الأديان للحرص بصورة متزايدة على اثبات انتمائهم إليه، عسى أن يثبت لهم بعض الميراث من تلك البلاد المقدسة، لا سيما ما نجده من اليهود ثم النصارى.

إن إبراهيم عليه السلام النبي الوحيد الذي اختار الله أرض سكناه، حين أمره بالرحيل إلى القدس آخذًا معه لوط عليهما السلام، كما اختار موضع إقامة زوجه هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام في مكة المكرمة، لتكون هذه العائلة العظيمة صمام أمان ودليل سيطرة وسيادة على أهم مسجدين لله في الأرض، ولا شك فهما للمسلمين عنوانا العزة والاستقلال الكبيران، والمنطلق لمشروع الخلافة العظيم، وهي أمانة آبائه آدم ونوح عليهما السلام، وبذلك بقي ذكر هذه العائلة محفوظًا عبر الأجيال، أما الإكثار من ذكر الآخرة وعدم التعلق بالدنيا فهي قدر يشترك فيه الأنبياء بل وكلُّ الصالحين العارفين بالله، وعليه فأظن أننا وإن قبلنا بالقول الآنف فإنه لا يمنع من إرادة سواه مما يتعلق بالمشروع الإسلامي الكبير وأهم حاضرة من حواضره التأسيسية، ويشير لذلك أنه حين لم يختص إسماعيل بسكنى بيت المقدس فإنه لم يجمعه مع إبراهيم في الذكر، وهو ابنه الأكبر وحبيبه الذي لكثرة تعلقه به واعتمال محبته في قبله ابتلاه الله به، فرأى في المنام أنه يذبحه اختبارًا لمحبوبيته لله[1]، واللافت أنه بالرغم من منزلة إسماعيل عليه السلام لكنه ما خصه بالذي خصهم به، فهو نزيل مكة لا القدس، بل جمعه مع غيرهم من الأنبياء في آية تالية بعدهم مباشرة: ﴿**وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ**﴾ (ص:48)، ومثله يوسف عليه السلام، فهو أيضًا لم يذكر معهم في هذا السياق وهو ابن يعقوب عليه السلام، لأنه ما اختصه ببيت المقدس كما اختصهم، وخرج منها صغيرًا إلى مصر، وكذلك لوط عليه السلام لم يكن في القدس والأقصى مركز الأرض المقدسة، بل كان في الأكناف المباركة، لذا فإنه لم يذكر معهم، كما أنه لم يشتغل بخدمة أرض المشروع الإسلامي كإبراهيم عليه السلام الذي جدد بناء المسجد الأقصى المبارك، وقبره في الخليل جنوب القدس الشريف، مع ضرورة ملاحظة أن هذه الآيات التي بينت اختصاص الله إبراهيم عليه السلام ببيت المقدس هي ذاتها

(24) قال ابن قيم: ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح، وفدي بذبح عظيم. الْجَوَابُ الْكَافِي لِمَنْ سَأَلَ عَنْ الدَّوَاءِ الشَّافِي، لان قيم الجوزية، ص: 340.

ISSN : 2410-1818

التي أعلن الله فيها خلافة عبده داوود عليه السلام في بيت المقدس، وأنه أول نبي ملك يحكم بشريعة الله في بيت المقدس.

وليس هذا بالغريب فبتتبع آيات بيت المقدس في القرآن فإنني وجدت أن الله تعالى لا يأتمن عليه إلا خيرة الخيرة من عباده، ويفوض أمره للمُصطفَينَ من جنوده، فهو على صورة الجائزة للمؤمنين القادرين على حفظ الأمانة، وهو كرامة من رب العالمين للعاملين الجادين، وهو ما يشير إليه قول الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام وهو يبين هذه القاعدة لقومه وقت اتجاههم للأرض المقدسة بعد نجاتهم من فرعون: ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (الأعراف:128)، والظاهر أن المقصود هنا هو بيت المقدس بدلالة السياق والمناسبة التي قيلت فيها، قال محمد رشيد رضا: "اطلبوا معونة ربكم وتأييده واصبروا على ما سمعتم من التهديد، ولا تجزعوا، فإن سألتم إلى متى ولماذا؟ قلت لكم: إن الأرض -أي الجنس، أو الأرض المخصوصة التي وعدكم بها ربكم، أي فلسطين- لربكم الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يورثها لمن يشاء من عباده وليس لفرعون، فهي بحسب سنته تعالى دول، والعاقبة الحسنة للمتقين الذين يتقون الله بمراعاة سننه ونواميسه في أسباب إرث الأرض، كالاعتصام بالحق والاتحاد، وجمع الكلمة، والصبر على المكاره، والاستعانة بربكم ولا سيما عند الشدائد، وإقامة العدل ونحو ذلك مما دعا إليه وحيه، وأيدته التجارب"[(1)]. ومثلها قوله تعالى على لسان موسى حين كان بنو إسرائيل في قمة إيمانهم، وخيرة عباد الله في الأرض، والمفضلين عنده على العالمين: ﴿**ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ (المائدة:21)، وكان هذا بعد قوله اللافت جدًا: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ**﴾ (المائدة: 20)، وهي نعمٌ ثلاثة، ثنتان منها مفهومة وظاهرة، والثالثة مشتبهة ومبهمة، فما هو الذي آتاهم ولم يؤت أحدًا من العالمين مثله؟

المطلب الأول: محاولة تعيين الأمة التي آتاها الله تعالى ما لم يؤت أحداً في آية (المائدة: 20)

اختلفت كلمة المفسرين في تعيين الأمة التي آتاها الله ما لم يؤت أحدًا من قبل، أهم بنو إسرائيل أم أمة محمد ﷺ، قال الطبري: "وأولى التفسيرين بالصواب، أنه خطاب لبني إسرائيل، ولا دلالة في الكلام على صرفه لأمة محمد ﷺ على طريقة الالتفات، والصواب أن يكون استمرارًا في خطابهم. فإن ظنَّ أحدٌ أن قوله: ﴿**وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ**﴾ لا يجوز أن يكون خطابًا لبني إسرائيل، لأن أمة محمد أوتيت من كرامة الله عزَّ وجلَّ بنبيها عليه الصلاة والسلام ما لم يؤت أحد غيرهم؛ فقد ظنَّ غيرَ

(25) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ص: (71/9).

ISSN : 2410-1818

الصَّوابِ" [1]. ووافقه ابن عطية [2]. واختلفوا في تعيين الشيء الذي آتاهم، فقال الطبري هي المعجزات كفلق البحر والآيات التسع وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوى واجتماع النُّبوة والملك فيهم [3]، ووافقه الماتريدي في تأويلاته [4]. وأضاف الرازي: "أنه أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم، وأنهم كانوا العلماء باللّه وأحباؤه وأنصار دينه"[5].

وبعدُ فإن ما قيل جلُّه محتمل وممكن لكنه غير كافٍ ليطمئن القلب، فكل ما ذكر لم يكن مقتصرًا على بني إسرائيل، فالأنبياء فيمن قبلهم كثير، والملوك قبلهم كذلك كانوا كثيرين، كالنمرود حاجَّ إبراهيم عليه السلام، وفي مصر في زمن يوسف عليه السلام، ولا شك فقد كانت فيهم معجزات كثيرة جدًا خاصة لكل أمة وليست لغيرها، وعلى هذا فقوله: ما لم يؤت أحد من العالمين ينطبق على الجميع، فلم تكن الناقة لغير قوم صالح، ولم يكن الطوفان لغير قوم نوح، وغيرها، ويبقى السؤال على حاله: بأي شيء كان تخصيصهم؟ سأبدأ الجواب بكلام سخيٍّ وجيد لابن عطية: "وهذه المقالة من موسى توطئة لنفوسهم حتى يتعززوا ويأخذوا الأمر بدخول أرض الجبارين بعزيمة وقوة، وينفذوا في ذلك نفوذ الذين أعزهم اللّه ورفع شأنهم" [6]. وكأن قوله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ (المائدة: 21)، جوابًا لسائل: وما هي النعمة التي ما آتاها لأحد من العالمين؟ فهي كعطف البيان من حيث المعنى، فالشيء الذي آتاهم إياه هو ما كان قد آتاه لجدهم إبراهيم حين أمره بالهجرة إلى بيت المقدس، ولم يرد أن اللّه كتب الأرض المقدسة إلا لبني إسرائيل، وغير خاف أنهم أَبَوْ كتابة اللّه وعطيته لهم، فحرَّم عليهم تلك الديار المباركة أبد الدهر: ﴿**فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ**﴾ (المائدة: 26). قال البقاعي: "ثم أتبع ذكر النِّعم الثلاثة بأمرهم بجهاد العدو في سياق مبشرٍ بالنَّصر، ومؤذن بنعمة أخرى يجب شكرها، فلذلك وصله بما سبقه كوصل المعلول بالعلة... وقوله: ﴿**الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ**﴾ لأنه صاحب الأمر كله ولا مانع لما أعطى ﴿**لَكُمْ**﴾ وذلك بأن تجاهدوا أعداءه عز

(26) تهذيب تفسير الطبري، بشار عواد وعصام الشهرستاني، ص: (66/3). وأخطأ أبو حيان حين نسب للطبري أنه يرجح أن الآية فيها التفات وأن الخطاب لأمة محمد، وقدم عليه قول ابن عطية أنه خطاب لبني إسرائيل، وقد أخذ ابن عطية قول الطبري وحجته. انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ص: (126/3).

(27) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ص: (174/2).

(28) ينظر: جامع البيان، للطبري، ص: (66/4).

(29) ينظر: تأويلات القرآن، أبو منصور الماتريدي، ص: (192/4).

(30) مفاتيح الغيب، للرازي، ص: (333/4).

(31) المحرر الوجيز، لابن عطية، ص: (174/2).

ISSN : 2410-1818

وجلَّ فترثوا أرضهم التي لا مثيل لها، فتحوزوا السعادة الكاملة في الدارين، وهي بيت المقدس والتي وعد أباكم إبراهيم عليه السلام أن تكون ميراثاً لولده بعده، من بعد أن جعلها مُهاجره"[1].

وقريب منه قول ابن عاشور: "وقوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ هو مقصود الخطاب، فهو كالغاية والمقصد بعد المقدمة، والأمر بالدخول يراد منه استجلاب أسبابه، أي تهيأوا للدخول للأرض المقدسة والمطهرة والمباركة، وهي هنا أرض كنعان أي أرض فلسطين، وفي وصفها بـ ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ﴾ تحريض على والتهيؤ والإقدام لدخولها، وذلك أن الله وعد إبراهيم أن يورثها ذريته، ووعد الله لا يتخلف"[2].

ومن تمام الكلام أنه لما أمرهم بذلك نهاهم عن التكاسل والتقاعد عن دخولها: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ أي: تتكلفوا الرجوع عن دخولها، وصوَّر لهم الفتور عن أخذها بما يستحيي منه أهل العزائم والهمم: ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ جامعًا بين الأمر والنهي لتخويفهم عاقبة العصيان، معبراً بصيغة الانفعال: ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ بفعل أيديكم ومن عند أنفسكم من غير شيء خارجي يسلطه الله عليكم ليقلبكم أو يقلب أحوالكم: ﴿خَاسِرِينَ﴾ جامعين بين خزي المعصية عند الله، ومَعرَّة الجبن عند الناس، والخيبة في السعي الخَليِّ من خيري الدارين.

وكان بين الشيخين -البقاعي وابن عاشور- والقول بأن تقديم بيت المقدس هدية لبني إسرائيل هو المقصود بإيتائهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين رمية حجر واحدة ليدمغوا رأس الحقيقة، أو ضربة فأس أخيرة يصلوا النبع الصافي النمير، وكأنهم خشية الإلباس وسوء الفهم أو الاتهام سكتوا عن ذلك، والأمر يسير لمنع اللبس؛ فبنوا إسرائيل ما قبلوا عطية الله وكتابته، فنُسِخَ الإيتاءُ بالمنع، ونسخت الكتابة لهم بالكتابة بحرمانهم، وليس ذلك ببعيد، فهو على مسافة ثلاث آيات فقط في ذات السورة الكريمة وبهذا التوجيه تنسجم الآيات مع بعضها في سبك محكم متين وذلك بين آيات سورة ص وآيات سورة المائدة والنتيجة أن الله تعالى اختص إبراهيم وذريته بسكنى بيت المقدس، وهي من أهم الأسباب التي جعلت لهم الذكر الحسن والقبول عند الجميع، بل والحرص من كل الأمم على الانتساب لإبراهيم عليه السلام، ويُصدِّق هذا إِخْبارُ الله تعالى أنه جاعلٌ من إبراهيم إمامًا، وهي خصيصة له كذلك ليست لغيره من الأنبياء كاختصاصه بسكنى بيت المقدس، لكن كما أن الله تعالى منع توريث الإمامة لمن لا يستحق من ذرية إبراهيم حين سأله الإمامة لهم، كذلك اختصاص ذريته ببيت المقدس نسخ بالتحريم الأبدي. ولعله اختار التعبير بالكتابة ليحقق هذا المعنى الدقيق: ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ

(32) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ص: (424/3).

(33) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ص: (77/5).

ISSN : 2410-1818

اللَّهُ لَكُمْ﴾ ففي الكتابة تضييق لمساحة الذين يحق لهم الانتفاع بهذه العطية، إذ هي أشبه بعقد البيع، والبيع غير متعدٍ للابن والحفيد كالميراث، بل مقيد بطرفي العقد فقط لأن مبتناه على الإيجاب والقبول، ويؤكد هذا نداء موسى عليه السلام لقومه الحاضرين معه، والنداء لا يكون للمعدوم أو للمفروض عقلًا، لذا فهو لا يستغرق الأجيال اللاحقة من بني إسرائيل، وكذلك الكتابة لذلك الجيل لا تتعدى لغيرهم.

وكما أنَّ عاقبة نكوصهم عن قبول كتابة الله تعالى وانكفائهم عن دخول الأرض المقدسة لا يتعدى لأبنائهم وللأجيال اللاحقة، فإن آثار العقد والكتابة لا تلزم الأجيال اللاحقة لا سيما وأن العقد فُسِخَ ولم يكن ثمة قبول منهم حين أعلنوا صراحة أنّهم لَنْ يدخلوها أَبَدًا مَا دَام الجبارون فِيهَا، ولقد وردت القصة في العهد القديم مفصلة بما ينطبق مع الرواية الإسلامية [1].

وحينها تبرأ موسى عليه السلام منهم، وعاقبهم الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾[2]، وهذا ما نطقت به التوراة [3]، وعليه فالنتيجة واحدة سواء أكان الوقف بعد عليهم، أو بعد أربعين سنة، وينتج أن صلة الأبناء ببيت المقدس كغيرهم من الناس من غير أهلها ولا فرق، والثابت أنهم حين دخلوا بيت المقدس بعد ذلك دخلوها ضيوفًا، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾(البقرة: 158)، فهي قرية أي مسكونة وفيها أهلها وهم ضيوف، والتعبير بالقرية مناسب لهذا فالقِرى طعام الضيف [4].

ويشهد لهذا آية الاصطفاء في سورة (آل عمران:33)، فالاصطفاء كان لشؤون متعلقة بخدمة المسجد الأقصى المبارك لا سواه، بدليل تعليل اصطفاء آل عمران بقول زوجه: يا رب إنني نذرت ما في بطني لك ولخدمة الأقصى المبارك [5]، وسيأتي مزيد بيان للأمر في موضعه.

(34) ينظر: العهد القديم، سفر العدد الاصحاح الرابع عشر. ص: 229.

(35) الوقف الصحيح أن يكون عند ﴿عليهم﴾ ثم تكون البداية من عند: ﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ لأن التحريم دائم، كما أن الواقع يؤكد أن مدة التيه كانت أربعين سنة وهذا ما تنص عليه التوراة في سفر العدد الاصحاح الرابع عشر: (وبَنوكُم يكونونَ رُعاةً في البرِّيَّةِ مُدَّةَ أربعينَ سنَةً، ويتَحمَّلونَ عاقِبةَ خيانَتِكُم إلى أنْ تَفنى آخِرُ جُثَّتِكُم في البرِّيَّةِ). ص:229.

(36) ينظر: المصدر السابق ونفس الاصحاح.

(37) للتوسع ينظر: ملكية القدس والأقصى بين المسلمين واليهود، دراسة قرآنية لغوية، منجد أبو بكر، ص (354-393).

(5) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا (238/3).

ISSN : 2410-1818

المطلب الثاني: محاولة تعيين العباد الذين اصطفاهم الله تعالى في آية (النمل: 59)

وقريب من آيتنا السابقة مما اشتبكت فيه الأقوال وتباينت قوله تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى**﴾ (النمل:59). وقد اختلفت كلمة المفسرين في تعيين هوية المقصودين بعباده الذين اصطفاهم في آية النمل، ففريق مالَ إلى أنَّ الخطاب للنبي لوط عليه السلام، وفريق قال: بل الخطاب للنبي محمد ﷺ، والعباد هم الصحابة رضوان الله عليهم، ومن هذا الفريق الطبري[1].

وفريق قال: الخطاب للنبي محمد ﷺ والعباد هم الأنبياء قبله، وهو أقعد وأسدُّ، ومما استدل به أبو حيان على هذا القول بأن المسلمين لا يزالون يقتدون بذلك في كلامهم وكتبهم ومواعظهم، فيفتتحوا كل ذلك بتحميد اللّه، والصلاة على نبيه ﷺ، وقيل يدخل فيهم اتباع الأنبياء الناجين من الهلاك مع أنبيائهم[2]. ومثله أبو السعود، وأنكر أنه أمرٌ للنبي لوطٍ عليه السَّلامُ، قال: "وبعده لا يخفى"[3].

والعُرف القرآني مما يقوي عندي أنهم الأنبياء فقد سكَّ القرآن لكل طائفة من المؤمنين عبارةَ تكريمٍ خاصة بهم؛ فلنبينا الأعظم جمع الصلاة مع السلام، كما في سورة (الأحزاب:56)، وسائر الأنبياء خصَّم بالسَّلام دون الصَّلاة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾ (الصافات:181)، ومثله ليحيى عليه السلام: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ**﴾(مريم:15)، ومن أدب عيسى عليه السلام لم يسأل لنفسه إلا السَّلام، تاركًا رتبة الصلاة والسلام لسيد الخلق ﷺ: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ**﴾ (مريم:33)، أمَّا الصَّحابة فقد خصَّهم بالرِّضى: ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ**﴾ (المائدة:119)، ومثلها: في (التوبة:100)، و (المجادلة:22)، و(الفتح:18)، واستحضار عادات القرآن في سياق فهم آية النَّمل يُرجِّح أن العِبادَ المُصْطَفَيْنَ الذين أُمِرَ النبي بالسَّلام عليهم هم الأنبياء، وسأترك شيئًا مما يستدل به لما يلي من سطور.

رابعًا: حملة القرآن: وهم أنبياء لا يوحى إليهم[4]، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ (فاطر:32)، وهم ثلاث طبقات: الظالم فالمقتصد ثم السابق بالخيرات، لكنهم جميعًا لفضلهم

(39) ينظر: جامع البيان، للطبري، ص: (98/13).

(40) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، ص: (256/8).

(41) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، أبو السعود، ص: (197/5).

(42) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه...)، باب: أخبار في فضائل القرآن جملة، كتاب فضائل القرآن، ص: (738/1).

ISSN : 2410-1818

وعلو رتبتهم وعظيم مهمتهم فلهم الجَنَّاتُ فِي عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ويُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أجمل الأَسَاوِر مِن الذَهَبِ وَاللُؤْلُؤ وَلهم لِبَاسٌ فِيهَا من حَرِيرٌ.

ويظهر بشكل جلي من خلال الأصناف الأربعة أن الاصطفاء متعلق بالمشروع الإسلامي الكبير، مشروع الخلافة والاستخلاف، وهي الغاية التي لأجلها خلق الله آدم وأنزله إلى الأرض، ليتحقق المقصود: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56).

لكنه سيبقى شيء ناقص، وهو مهم جدًا ولن يتم المشروع إلا به، وهي المنطقة الجغرافية الحرة القادرون أهلُها على إظهار دينهم وشِعَارِهم وشَعَائِرهم، أو ما يمكن أن نطلق عليه الدولة المسلمة القائمة على أمر الله وشرعه، والتي عنوانها المسجد، وهو ما وجدته في باقي مواضع الاصطفاء في القرآن، حيث كان الاصطفاء لمن يساهم في تأسيس الدولة وبنائها وحمايتها، كما سيظهر فيما يلي:

خامسًا: بُناةُ الدَّولة المسلمة وصانعوا نواتها ورافعوا شعارها:

وهم ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: بُناة الدولة وأهم ما فيها المسجد:

هؤلاء الصنف هم صانعوا التاريخ المنتفعون من الجغرافيا والموظفون لها، فإن لم يجدوا ما يناسب مشروعهم ساحوا في الأرض بحثًا عن الجغرافيا فإن وجدوها ذللوا كل الصعاب في سبيل الانتفاع بها بما يخدم مشروعهم، وأولهم آدم فنوح حتى إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما في آية (آل عمران:33) والدليل على تعلق الاصطفاء بشعار الإسلام ما ورد بعدها من التعليل للاصطفاء: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ (آل عمران:35) وإذ ظرف للزمن الماضي، بمعنى (حين) أو التعليل للاصطفاء بمعنى (لأن) [1]، وأنكر الزَّجَّاج قول أبي عبيدة بأن ﴿إذ﴾ لَغْوٌ. مستدلًا بأن ما يدل على ما مضى من الزمن كيف يكون لغواً! كما أنكر أنها منصوبة بمضمر، تقديره: اذكروا إذ قالت امرأة عمران. ورجح أن العامل في ﴿إذ

(43) قال المرادي: المعنى الثالث لكلمة (إذ): التعليل، نحو قوله تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم﴾، ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون﴾. ومنه قول الفرزدق:

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم ... إذ هم قريش، وإذ ما مثلهم بشر

واختلف في إذ هذه، فذهب بعض المتأخرين إلى أنها تجردت عن الظرفية، وتمحضت للتعليل. ونسب إلى سيبويه. وصرح ابن مال، في بعض نسخ التسهيل، بحرفيتها. وذهب قوم، منهم الشلوبين، إلى أنها لا تخرج عن الظرفية. قال بعضهم: وهو الصحيح. الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، ص: 30.

ISSN : 2410-1818

قالت﴾ هو معنى الاصطفاءِ والتقدير: (واصطفى آل عمران حين قَالَتِ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ). (واصطفاهم حين قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَمَرْيَمُ إِنّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ) [1]. ووافقه السمين في درِّه المصون مبينًا أن قوله: ﴿**وآلَ عِمْرَانَ**﴾ من نوع عطفِ الجمل لا من نوع عطف المفردات، لما فيه من اللبس؛ فلو جُعِلَ من عَطْف المفردات لكان وقتُ اصطفاء آدم هو نفس وقت نذرِ امرأة عمران، والحال ليس كذلك لتغايُرِ الزمانين [2]. وللأمانة فالسَّمين كشيخه أبي حيان لم يصرِّح بترجيح هذا القول، وإن كان طول نفسه بتعليله يوحي بذلك، إضافة لاستبعاده قول الطبري والزمخشري بأن ﴿**إذ**﴾ معمولة لـ ﴿**سميع**﴾، كما استبعد القول بالزيادة لأبي عبيدة، وجعل قول الأخفش احتمالًا دون تعقيب.

وهو ما أميل إليه لأن آية الاصطفاء رفعت قدر آل عمران لرتبة الأنبياء، وهو أمر غريب اقتضى التعليل، وقد أبعد النُّجعة من جعل آل عمران موسى وهارون عليهما السلام بعلة كثرة ذكر موسى مع إبراهيم، وأنهما ابنا عمران ومن آله، وأن الاصطفاء في الآية لوظيفة النبوة، وأن عمران وحنة بنت فاقوذ جدَّي عيسى عليه السلام ليسا نبيين، والغريب أن الجمهور على هذا القول كما صرح بذلك رشيد رضا [3]. ومما يقوي عندي أن المذكورين آل عيسى أشياء سأورد بعضها في مطلب فرعي.

المطلب الثالث: أدلة أن آل عمران في آية الاصطفاء هم آل عيسى عليه السلام

1. سياق السورة في مناقشة النصارى عمومًا، والقضية الرئيسة هي إثبات ناسوتية عيسى عليه السلام ومنع الألوهية عنه، فذكر نَسَبَه مصرحًا بجَدِّه وجَدَّتِه، ومخصصًا لهم بالذكر من آل إبراهيمَ مع أنهم من نسلهم لكمال رسوخِ الخلاف في شأن عيسى بين الناس، وبه قال أبو السعود [4].
2. لم يرد ذكر هارون عليه السلام في سورة آل عمران، كما لم يرد ذكرٌ لموسى عليه السلام إلا مرة واحدة مع بعض الأنبياء، فمن الغريب أن يقطع قصة آل عيسى بذكرهما، وليس ثمة غرض أو حاجة، ومما أضافه أبو السعود أن موسى وهارون يندرجون بشكل أولي في آل إبراهيم، فليس ثمة حاجة لتكرار ذكرهم [5].

---

(44) ينظر: معاني القرآن، للزجاج، ص: (398/1).

(45) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ص: (129/3). وقد نحله السمين من شيخه أبي حيان في البحر المحيط، ص: (311/5).

(46) ينظر: تفسير المنار، رشيد رضا، ص: (239/3).

(47) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ص: (64/2).

(48) ينظر: المرجع السابق، ص: (64/2).

ISSN : 2410-1818

3. يترتب على جعل عمران الأول والد موسى وهارون عليهما السلام إلباس وتشويش، لتكرر ذكره بعد زمن يسير دون فصل بذكر غيرهما، مع القطع بأن الثاني هو جد عيسى عليه السلام، مما يجعل النص مفككًا، وهو مما ينبغي أن ننزه النظم المعجز عن مثله، "وهو من قبيل تكرار الاسم في جملتين فيسبق الذهن إلى أن الثاني هو عين الأول، نحو: أكرم زيدًا إن زيدًا لفاضل. وإن كان المراد بالثاني غير الأول كان في الكلام إلباس على السامعين" [1].
4. تعليل اصطفاء آل عمران كما مر بنا في قول الزَّجاج والذي مال إليه أبو حيان والسمين، بأن امرأة عمران أرادت من في بطنها خادمًا للمسجد الأقصى، قال ابن عاشور: "هي حنة بنت فاقوذا. مات زوجها وتركها حبلى فنذرتْ ما في بطنها خالصًا لخدمة بيت المقدس، وكانوا ينذرون الوليد إذا كان ذكرًا. وإطلاق المحرر للتشريف؛ لأنه لما تمحض لخدمة المسجد الأقصى في بيت المقدس فكأنه تحرر من أسار الدنيا وقيودها للحرية التامة في عبادة الله تعالى" [2].
5. وجود قاسم مشترك بين المذكورين في آية الاصطفاء، فقد شاركوا في التأسيس للمشروع الإسلامي، منذ آدم الخليفة الأول فنوحٍ ثم إبراهيم، كما سيظهر لاحقًا.

وبعدُ فقد حضر مصطلح الاصطفاء في القرآن ممنهجًا ومتدرجًا لتحقيق مقاصده الكبرى عبر تعليقه بالمشروع الإسلامي وتأسيس الدولة ورفع شعارها، وقد مرَّ الحديث بتفصيل عن آل عمران وآل إبراهيم، ويبقى البيان لشأن آدم ونوح وتعلقها بمشروع الإسلام ودولته وداره، أما آدم عليه السلام فهو الخليفة الأول والباني الأول للمسجدين الحرام والأقصى، وبه بدأت قصة الإنسانية وبدأت العلاقة بينها وبين الجغرافيا، فحين نزل آدم عليه السلام إلى الأرض كان من أول عملٍ له فيها بناء الكعبة ثم المسجد الأقصى تمهيدًا للجغرافيا لتصير مناسبة للمشروع، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أي ؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه) [3]. والقول في تحديد الباني للكعبة وللمسجد الأقصى يتردد بين العلماء على ثلاثة أقوال: فأولًا هو إبراهيم عليه السلام بدليل آية (البقرة:127)، أمَّا الأقصى فبانيه هو سليمان عليه السلام بدليل الحديث

(49) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الألوسي، ص: (177/2).

(50) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ص: (85/3).

(51) أخرجه البخاري في الصحيح، باب {يزفون} (الصافات:94) النسلان في المشي، كتاب الأنبياء، رقم: (3186)، ص: (1231/3).

ISSN : 2410-1818

الذي ينص على أنه لما بنى بيت المقدس سأل ربه خلالًا ثلاثة [1] والقول الثاني: هو آدم عليه السلام. والثالث: الملائكة عليهم السلام.

وعلى القول بأن الباني هو آدم عليه السلام كثيرون كالرازي والقرطبي وابن حجر وابن هشام في السيرة، قال المباركفوري: "وقوله: (أربعون عامًا) مُشكل، فالمسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام بنص الكتاب العزيز، وباني المسجد الأقصى هو النبي سليمان عليه السلام، وبين النبيين أكثر من ألف سنة. والجواب أن الإشارة لواضع أساس المسجد وأول من بناه، وليس إبراهيم أول بانٍ للكعبة، ولا سليمان أول بانٍ للأقصى، والمروي أن أول من بنى الكعبة آدم، ثم انتشر أولاده، فممكن أن يكون بعضهم قد ابتنى بيت المقدس بعده بأربعين عامًا" [2]. وقال الزركشي في إعلام الساجد مثل ذلك وزاد أن آدم بعد فراغه من بناء الأقصى نسك فيه [3].

ورفع القرطبي الإشكال بأن الآية والحديث ليس فيهما ما يدل على أن إبراهيم وسليمان قاما ببناء المسجدين ابتداء، بل الظاهر أنه تجديدٌ لما كان أسسه غيرهما من قبل، وأن بناء آدم للكعبة هو المشهور. ثم قال: "بل هو الذي أسس المسجدين لا غيره" [4]. ومثله مجير الدين الحنبلي [5].

واستدل الرازي على أن الكعبة كانت موجودة في زمن آدم عليه السلام، بأربعة أدلة متينة يعسر الإيراد عليها أو الاعتراض [6]. وهو ما رجَّحه الزرقاني في شرحه على الموطأ مبينًا أنها مسائل لا رأي فيها، والحكم للنص [7].

ويضاف لكل ما قيل أمر مهم، يمنع القول بكون إبراهيم عليه السلام هو الباني للكعبة وهو أنه حين نقل زوجه وابنه إسماعيل عليهما السلام للحجاز قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم:37)، ذكر البيت معرفة، وهو يعرف مكانه قبل أن يؤمر بإعادة بنائه مع

(52) أخرجه النسائي في السنن، باب فضل المسجد الأقصى والصَّلاة فيه، كتاب المساجد، ص: (34/2).

(53) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، ص: (468/2).

(54) ينظر: إعلام الساجد بأحكام المساجد، للزركشي، ص: 31.

(55) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العبَّاس القرطبي، ص: (43/5).

(56) ينظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين العليمي، ص: (30/1).

(57) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ص: (265/8).

(58) ينظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، للزرقاني، ص: (445/2).

ISSN : 2410-1818

إسماعيل عليه السلام، فكيف لزاعم أن يدعي بعد هذا البيان القاطع بأن الباني هو إبراهيم عليه السلام، وإذا انتفى هذا فالزعم بأن باني الأقصى هو سليمان عليه السلام أجدر بالنَّفي.

وهناك احتمال ليس بالبعيد وهو أن البيتين يراد بهما الأرض، وإن لم يكن ثمة بناء مرفوع، وممكن أنه على اعتبار ما سيكون، فمن المعلوم أن المسجد الأقصى هو الأرض بصرف النظر عن المباني التي عليها، لا سيما أنها جميعًا حادثة في العصر الأموي، وكذلك بالنسبة للكعبة المشرفة؛ فإن القداسة للأرض أصالة، وللبناء بالتبع، وقد هُدمت الكعبة مرارًا عبر التاريخ، ولم تهدم قداسةُ المكان.

والذي أميل إليه أن الباني هي الملائكة أو آدم عليهم الصلاة والسلام، والنتيجة واحدة؛ إذ البناء للبيتين بدأ مع قصة الإنسانية في الأرض، وكانت له غاية كبرى؛ فأما مكة فهي قبلة الأنبياء وهي عاصمتهم الدينية التي كانت خارج محل الصراعات عبر التاريخ، وحين تجرأ أبرهة عليها بجيشه قصم الله ظهرهم بالطير الأبابيل وصاروا عبرة لكل أحد، وأما المسجد الأقصى وبيت المقدس فهو قبلة المسلمين الأولى وثاني المسجدين وثالث الحرمين، ويوشك أن يكون عاصمة الإسلام السياسية، فقد كانت القدس عاصمة لمملكة داود عليه السلام وهي أول مملكة إسلامية تحكم بشريعة الله تعالى، يحكمها خليفةٌ ملكٌ نبيٌّ، وكذلك آخر مملكة إسلامية في الأرض وستكون عاصمتها القدس الشريف كما سيرد لاحقًا، وكانت ولا تزال المدينة المقدسة محل الصراع ومركز النزاع بين المسلمين وأعدائهم اليهود الأكثر خبثًا ومكرًا، لما للقدس من رمزية دينية وسياسية لدى الجميع، وعلى كلٍّ فالاصطفاء متعلق بالمشروع الكبير، والذي يعتبر المسجد من أهم ركائزه وركائز الدولة، وبُناة المسجد أو الدولة ممن يصطفيهم الله تعالى، وفي بناء المسجد النبوي كأول عمل رسمي للمصطفى ﷺ في المدينة لإعلان ميلاد الدولة الإسلامية الجديدة شاهد ودليل.

المطلب الرابع: تعليل حضور اسم النبي نوح عليه السلام في آية الاصطفاء

أمَّا عن سرِّ حضور نوح عليه السلام في آية الاصطفاء، وهي مختصة ببناء المسجد وهو مركز الدين في الأرض، فإنه يترجح لي أن سفينة نوح استقرت في بيت المقدس أو على الأقل أنه سكن هو ومن نجا معه في السفينة في تلك المدينة المباركة أو في أكنافها، ولعله جدد المسجد بعد الطوفان العظيم، إذ طوفان بهذا الحجم الهائل مظنة أن يهدم المسجد أو بعض أجزائه، وذلك لخمسة شواهد قرآنية:

1. ذكر نوح في سورة الإسراء في سياق الحديث عن الصراع بين أمة محمد ﷺ وبني إسرائيل ولا علاقة لنوح ببني إسرائيل بصورة مباشرة أو ظاهرة؛ فهو قبلهم بمئات السنين ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نوحٍ﴾ (الإسراء:3)، وذرية منادى منصوب يقول لبني إسرائيل المفسدين في بيت المقدس: يا ذرية من حملنا مع نوح. فلماذا ورد هذا الوصف هنا، ولم يرد في موضع غيره؟

ISSN : 2410-1818

2. سأل نوح ربه أن تهبط السفينة في أرض مباركة: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾ (المؤمنون:29)، فاستجاب الله له: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ (هود:48)، ومن خلال استقرائي وجدت أن القرآن لم يصف أرضًا بالبركة أو القداسة إلا بيت المقدس، ومعلوم أنها تبارك أهلها: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:71)، والعالمون تشمل كل شيء خلقه الله تعالى، الملائكة والإنس والجن والطير والوحش وغيره. فكلهم يأخذ من بركة الأقصى، وكما أن الله تعالى رب العالمين فالقدس بركة للعالمين. كما أنها تبارك الأرض حولها: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء:1)، ولا يوجد مكان سواه يبارك ما حوله.

3. وصف الله نوحًا بأنه ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:3)، في سورة الإسراء، ولم يرد مثله إلا في سورة التحريم مع أخيه لوط عند ذكر خيانة زوجتيهما، وفيها وصف النبي ﷺ كذلك بأنه عبد وقت الإسراء للأقصى، ووصف الجنود الذين يحررون الأقصى بالعباد، فكأن الوصف له صلة بخدمة المسجد الأقصى.

4. أن الله ذكر نوحًا في آية الاصطفاء في آل عمران، والآية متعلقة بخدمة الأقصى، كما مرَّ بنا، لا سيما أن المؤرخين يكادون يتفقون على أن سام بن نوح هو أول من أسس وبنى القدس وعموم الشام، وأن الشام تحوير لاسمه سام، قال مجير الدين الحنبلي: "مَدِينَة الْقُدس كَانَت أرْضهَا فِي ابْتِدَاء الزَّمَان صحراء بَين أَوديَة وجبال خَالِيَة لَا بنَاء فِيهَا وَلَا عمَارَة فَأول من بناها واختطها سَام بن نوح عليهما السلام وَكَانَ ملكا عَلَيْهَا وَكَانَ يلقب مَلْكِي صَادِق وَمَعْنَاهُ بالعبرانية ملك الصدْق" [1].

ونقل الفيومي عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام بنى البيت المقدس على أساس قديم. كان أسسه سام بن نوح، وعن عطاء الخرساني قال: "بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء والله ما فيه من موضع شبر إلا وقد سجد نبي فيه" [2]

5. لم يرد وصف الاصطفاء إلا للأنبياء الذين كانوا في المسجد الأقصى وأكنافه، وهم:

أولًا: آدم عليه السلام، وهو خليفة عندي وليس نبي، والخلافة رتبة عظيمة ومقصد الوجود والخليقة، والخلافة أمر مستطاع وممكن، وفيها يحضر الاختيار والكسب، وليست النبوة كذلك، فالحضور الإلهي في شخص الأنبياء كبير عبر العصمة، والأنبياء في ذلك أقرب للملائكة، وإنما يتفوقون على الملائكة بسبب تلك المساحة التي لديهم من القدرة على الكسب والاختيار، والعصمة تحوطهم وتحفظهم من الوقوع فيما لا يصح أو ما يتعارض مع النموذجية التي ينبغي أن تكون في رسل الله وأنبيائه

(59) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، العليمي، ص: (30/1).

(60) فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب للإمام المنذري، الفيومي، ص: (190/6).

ISSN : 2410-1818

ليكونوا قدوات بلا منغص أو معيق يعطل العملية أو يقف عثرة في طريقها، وليس هذا موضع عرض أدلتي على عدم نبوته، وهي كثيرة جدًا، لكن المهم عندي أنه حضر في القرآن بوصفه خليفة بالمعنى السياسي للمصطلح، حضور لتحقيق مقاصد الخلق الكبرى، فكانت أهم وظائفه أن يبني أهم حاضرتين للمشروع الكبير، وأعظم قبلتين، وأهم عاصمتين، العاصمة الدينية وهي الكعبة والعاصمة السياسية وهي الأقصى.

ثانيًا: إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام، وقد مرَّ، لكنه خصَّ إبراهيم بالاصطفاء: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ (البقرة:130)، لأنه المقصود الأول بحفظ المسجدين الكعبة والأقصى، وهو من جدد بناءهما.

ثالثاً: موسى عليه السلام، وكان يكلم ربه في الأرض المقدسة في بيت المقدس: ﴿**قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي**﴾ (الأعراف:144)، وتخصيص التكليم بعد التعميم قبله لأنه في بيت المقدس، وهو من مقاصد الاصطفاء الأساسية.

رابعًا: لوط عليه السلام، حيث نجاه الله إلى الأرض المباركة مع إبراهيم عليه السلام، وهو أول مقصود بسلام النبي محمد ﷺ كما مرَّ بنا في سورة (ص)، والآية تخص لوطًا عليه السلام، بشكل أساسي، مع ضرورة الإشارة إلى أن السورة عمومًا في كل السياقات السابقة لآية الاصطفاء لم تذكر من الأنبياء إلا من كان في الأرض المباركة أو في أكنافها، فالأنبياء الذين ذكرتهم السورة هم: (موسى، داوود، سليمان، صالح، لوط) عليهم السلام، وجميعهم في بيت المقدس وأكنافها، وبحسب الكثير من الروايات الشعبية أن قبر ومقام النبي صالح في منطقة الرملة في فلسطين، وقيل على تلة مرتفعة إلى الغرب من مدينة الخليل المحتلة في الضفة الغربية وتحديدًا في بلدة ترقوميا[61]. وهي رواية من الإسرائيليات لكنا مما يصح نقله ولا حرج، ومما يقوي أنه في أكناف الأقصى أنها أرض النجاة، نجى الله إليه إبراهيم وموسى ولوط وهذا صالح عليه السلام، كما أنه ممن اصطفاهم الله تعالى، وكل الأنبياء الذين ورد فيهم الاصطفاء ممن أقاموا في بيت المقدس أو خدموه، وهو ليس بدليل، لكن حين لم يكن ثمة ما يمانعه أو يعارضه فلا بأس بسياقته استئناسًا.

خامسًا: الأنبياء (زكريا وعيسى ويحيى) عليهم السلام، وهم داخلون في آل عمران كما مرَّ بنا.

سادسًا: نوح عليه السلام، في آية آل عمران.

(61) ينظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين العليمي، ص 45/1.

ISSN : 2410-1818

والنتيجة أن الاصطفاء متعلق بالمسجد الأقصى، لتعلقه بالمشروع الإسلامي الكبير.

الصنف الثاني: محرر أرض المشروع الإسلامي ومطهرها من الاحتلال الكافر الظالم:

وهو طالوت عليه السلام: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ (البقرة:247) وهو قائد أول جيش إسلامي لتحرير بيت المقدس المبارك، فعبر القرآن عنه بالاصطفاء، وبلا شك فهي أول معركة لإقامة الدولة الإسلامية الأولى في الأرض، ولا نعرف مملكة إسلامية قبلها في النص القرآني، وبعد الاختبارات التي قررها الملك طالوت لتطهير جيشه من الدخلاء، وتخليصه من أي جندي ضعيف الإيمان أو الإعداد، انتهى لثلة مؤمنة صادقة تثق بالله وبوعده جاءهم النصر جاثيًا، حتى لقد تفاءل النبي ﷺ وأصحابه حين كانت عِدَّةُ جيش المؤمنين يوم بدر كعديد جيش طالوت، كما في حديث البراء[1]، وبعد التحام الجيشين وفي غياب لطالوت عن مسرح الأحداث لسبب لا يُعلم على وجه اليقين برز الجندي الصادق داوود وقتل جالوت، وانتصر الجيش الإسلامي وتم التحرير وبعد حين لا نعلم قدره بالضبط كانت العَطية الأعظم في التاريخ، والهدية الأجزل في الدنيا لأكثر جندي مؤمن وجسور في الجيش طالوت وهو الجندي الذي تمم الله النصر والفتح على يديه بقتله لجالوت، فجمع الله تعالى له بين السلطة السياسية متمثلة بالملك، والسلطة الدينية متمثلة بالنبوة: ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ (البقرة:251)، فصار أول نبي ملك في التاريخ، في سابقة ليس لها مثيل، وورثه سليمان عليه السلام، ثم سيدنا محمد ﷺ الذي جمع السلطات كلها، وهو من رفض أن يلقب بالملك واصطفى لنفسه العبودية[2]، ولا يوجد نبي غيرهم جمع بين السلطتين، فيما نعلم، والمهم أنه كان ببركة تحرير أرض المشروع الإسلامي الكبير، أو بناء دولة للمشروع الإسلامي الكبير كما في شأن سيدنا رسول الله ﷺ، ومن اللافت أن إرادة الله تعالى شاءت أن تكون عاصمة أول دولة إسلامية يحكمها ملك نبي هي القدس الشريف، وكذلك آخر مملكة إسلامية يحكمها عيسى عليه السلام، حيث ينزل ملكًا لا نبياً، يؤسس مملكة إسلامية عاصمتها القدس الشريف، وهذا هو المشهور لدى العلماء[3].

(62) أخرجه البخاري في صحيحه، باب عدة أصحاب بدر، كتاب المغازي، رقم (3742)، ص (1457/4).

(63) عن أبي هريرة قال: (جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء؛ فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال: أفملكًا نبيًا يجعلك أو عبدًا رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: بل عبدًا رسولًا). المسند لأحمد في مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم (7160)، ص: (231/2).

(64) قال النووي: ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل عيسى ابن مريم من السماء، ويقتل الدجال بباب لد). وأحاديثه في قصة الدجال مشهورة في الصحيح، وينزل عيسى حكمًا عدلًا كما سبق في الحديث الصحيح لا رسولًا، وأنه يصلى وراء الإمام منا

ISSN : 2410-1818

الصنف الثالث: خدم أرض المشروع الإسلامي وحراسه:

وهم آل عمران كما مرَّ بنا، ولأن مريم هي الشخص الذي قام بالعمل المباشر فقد ذكرها الله بالاصطفاء بشكل خاص كما لم يكن لأي أحد سواها: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران:42)، ولا شك فإن هذا ينسجم مع المنهج الإسلامي فكما حدثنا النبي ﷺ أن جهاد المرأة الحج لما فيه من حفظِ شِعَارِ الإسلامِ الأعظم وقت اشتغال الرجال بالجهاد في ساحة المعركة، فإن جهاد مريم عليها السلام كذلك كان المحافظة على شعار الدولة المسلمة وهو المسجد الأقصى في بيت المقدس، وهما المسجدان اللذان ابتناهما الأنبياء وصانهما الأولياء والأصفياء، ولذلك حين سألت ميمونة بنت سعد مولاة النبي، قائلةً: "يا رسول ﷺ الله أفتنا في بيت المقدس؟" أمرها أن تذهب للصلاة فيه على الرغم أنه كان أرض حربٍ وقتها، فإن لم تستطع ذلك فترسل زيتًا يسرج في قناديل الأقصى[1]. وكأنه جواب مناسب للسائلة ولحالتها، فهي أمة وصغيرة وفقيرة، ومثلها يكفيه أن يبذل بعض الزيت ليبقى المسجد الأقصى منارةَ عزةٍ وقوةٍ ومعلنًا حضور المشروع الإسلامي في الساحة الدولية، وذلك لرمزيته المهمة فهو شعار الإسلام وعنوان دولته وهيبته، وعلى كل مسلم القيام نحو بواجبه بما يملكه ويستطيعه ولو بقطرات زيت يسرج قناديله ليبقي ذبالتها مُتَّقِدةً، كي يبقى كما أراده الله تعالى.

تكرمة من الله تعالى لهذه الأمة. وجاء أنه يتزوج بعد نزوله، ويُولد له، ويدفن عند النبي ﷺ. تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، ص: (47/2).

(65) أخرجه أبو داوود في سننه، باب في السرج في المساجد، كتاب الطهارة، ص: (174/1).

ISSN : 2410-1818

النتائج والتوصيات:

1. النظرة المقاصدية أثناء التعامل التفسيري مع القرآن الكريم تعين على استكشاف الكثير من الحقائق الكبرى والغايات التأسيسية التي يحرص القرآن على تحقيقها في الأرض وتخليقها في المسلم، وظهر لنا شيء من هذا اثناء استعراضنا لمادة (صفا) في القرآن الكريم، وتحديدًا لمصطلح الاصطفاء، وكيف حضر، ولمن، ولأي مقصد وغرض، وأنه في كل ذلك كان يسعى لمشروع كبير أعد له العدة واصطفى لها من يقوم بها خير قيام، منذ آدم عليه السلام وحتى يرث الأرض ومن عليها.

2. التفسير المقاصدي يعين الباحث على ترجيح بعض الأقوال على بعض، وتقديم أقوالٍ وتأخير غيرها، كما أسهمت في ترجيح المقصودين بالعباد الذين اصطفاهم في سورة النمل، ومكان رسو سفينة نوح عليه السلام أو إقامته، ومكان إقامة أو عبور صالح عليه السلام، وهي أمور غير قطعية، يستأنس بها ولا يجزم، وهي من ملح التفسير لا من متين العلم.

3. احتشد القرآن الكريم لتحقيق مقاصده الكبرى وأجلب عليها بخيله ورجله وكل طاقة ممكنة، لا سيما مقصد الخلافة وإقامة الدين وتحقيق العبودية لله تعالى في الأرض، وله في ذلك سنن لا تتبدلن ولا تحابي ولا تجامل.

4. تعلق الاصطفاء في القرآن الكريم بخمسة أصناف كلها متظافرة ومتحدة لتحقيق المشروع الإسلامي، وتجلى هذا المفهوم العام الواسع حين كانت النظرة من زاوية المقاصد القرآنية، وهي دعوة للباحثين لدراسة الاصطلاحات القرآنية بمنهجية مقاصدية، منضبطة بالأصول المعتبرة لدى أهل الفن، لما في هذا النوع من النظر من توسيع للمفاهيم وترحيب للدلالات، وترشيد للمعاني والمقاصد وضبط لأفلاك المفسر كيما تبقى في محورها حول المركز النووي للسورة الكريمة وللقرآن كله.

5. مكة والقدس أو الكعبة والأقصى محوران أساسيان للمشروع الإسلامي الكبير، ولعلي لا أبالغ إن قلت إن مكة هي العاصمة الدينية للمشروع الإسلامي الكبير، والقدس هي العاصمة السياسية له، ولهما قدر كبير وعناية فائقة من الأنبياء والرسل، والأصفياء والصديقين، لإدراكهم القيمة الحقيقة لهما عند الله تعالى.

ISSN : 2410-1818

وبعد فإن الباحث يوصي المنشغلين بعلم التفسير بعدد من المسائل:

أولًا: الحرص على التفسير المقاصدي لما له من أثر جيد في استخلاص أهم الغايات القرآنية وإدراك أولويات الشريعة الإسلامية، بالتالي يكونون عونًا للمسلمين على تحقيق غايات خلقهم.

ثانيًا: الاجتهاد في تنزيل النصوص القرآنية في الواقع بما يناسب زمانهم ومكانهم وأمتهم، ليسهم في حل مشكلات الحياة وأزماتها، لما لذلك من تعزيز صلة المسلمين بكتاب الله تعالى وثقتهم به، فيزيد إيمانهم بربهم وتمسكهم بدينهم.

ثالثًا: أن يحرص العلماء على أن يكونوا من خَدَمِ الشريعة والدين بصورة واقعية عملية، رابطين بين الدين والتاريخ والجغرافيا، ليستحقوا وراثة النبي صلى الله عليه في تكميل المشروع الإسلامي الكبير.

رابعًا: إقامة ندوات ومؤتمرات لمناقشة دور العلماء في استحضار المشروع الإسلامي العظيم، مشروع الخلافة، وبيان الوظيفة المنوطة بكل فئات المسلمين لتحقيقه، ابتداء من الحاكم فالعالم فالعامي.

ISSN : 2410-1818

ثبت المصادر

1. ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 1998)، ط3.
2. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2020)، ط5.
3. جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: محمد شاهين، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1995)، ط2.
4. الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد السمرقندي، تأويلات القرآن، تحقيق: محمد بوينو قالين، (إسطنبول: دار الميزان، 2005)، ط1.
5. أبو إسحاق الزجاج إبراهيم بن السري، معاني القرآن، تحقيق: عبد الجليل شلبي، (بيروت: عالم الكتب، 1988)، ط2.
6. أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (الهند: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، 1984)، ط3.
7. أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: فريق من الباحثين، (بيروت: دار ابن كثير، 1996)، ط1.
8. أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، (دمشق، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ط2.
9. أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، تحقيق: السيد محمد السيد، وسيد عمران، (القاهرة: دار الحديث، 2005)، ط3.
10. أبو بكر الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، ت: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1995)، ط1.
11. أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: ماهر حبوش ومحمد عرقسوسي، (بيروت: الرسالة العالمية، 2020)، ط1.
12. أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، ط2.
13. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى البغا، (لبروت: دار ابن كثير، 1986)، ط3.
14. أبو محمد حسن بن علي بن سليمان البدر الفيومي، فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب للإمام المنذري، تحقيق: محمد آل إبراهيم، (الرياض: مكتبة دار السلام، 2018)، ط1.

ISSN : 2410-1818

15. أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، ت: فريق من الباحثين، (قطر: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إدارة الشؤون الإسلامية، 2007)، ط2.
16. أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام محمد، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2021)، ط2.
17. أثير الدين محمد بن يوسف بن علي أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: محمد معتز، (بيروت: الرسالة العالمية، 2020)، ط2.
18. أحمد المصري، التفسير المقاصدي، مجلة كلية أصول الدين بالمنوفية، عدد 39، ص: 1679.
19. أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، تحقيق: بهاء الدين دارتما، (إسطنبول: منشورات جامعة ابن خلدون، 2019)، ط1.
20. أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله التركي، (الأردن: مؤسسة الرسالة، 2001)، ط1.
21. أحمد بن زكريا ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: دار الفكر، القاهرة، 1979)، ط2.
22. بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفا مصطفى المراغي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1996)، ط2.
23. بشار عواد وعصام الشهرستاني، تهذيب تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، (الأردن، مؤسسة الرسالة، 1994)، ط1.
24. جمال الدين يوسف الصفدي، كشف الأسرار وهتك الأستار، تحقيق: بهاد الدين دارتما، (إسطنبول: نشريات وقف الديانة التركي، إيصام، 2019)، ط1.
25. الحسن بن عبد الله، أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: جمال مدغمش، (دمشق: دار الرسالة العالمية، 2014) ط2.
26. الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد فاضل، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1992)، ط1.
27. الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داودي، (مشق: دار العلم والدار الشامية، 1435، 2014)، ط6.
28. سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داوود، السنن، (بيروت: دار الكتاب العربي 1989)، ط1.
29. السمين الحلبي أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، (دمشق: دار القلم، دمشق، 2016)، ط4.
30. فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، (الأردن: دار ابن كثير، 2018)، ط3.

ISSN : 2410-1818

31. مجير الدين الحنبلي العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان نباتة، (عمان: مكتبة دنديس، 1999)، ط2.
32. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الْجَوَابُ الْكَافِي لِمَنْ سَأَلَ عَنْ الدَّوَاءِ الشَّافِي، (دمشق، دار المعرفة، 1997)، ط2.
33. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود شاكر، (بيروت: دار ابن حزم، 2013)، ط1،
34. محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تحقيق: طه سعد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2003)، ط2.
35. محمد بن عبد الله، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مقبل الوادعي، (مصر: دار الحرمين، 1995)، ط2.
36. محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001)، ط4.
37. محمد بن محمد العمادي، أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، تحقيق: طه بوبالق وآخرون، (إسطنبول: نشريات وقف الشؤون الدينية التركي (إيصام)، 2020)، ط1.
38. محمد بن محمد بن علي ابن الجزري، نشر القراءات العشر، تحقيق: أيمن سويد، (إسطنبول: دار الغوثاني للدراسات القرآنية، 2018)، ط1.
39. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، اعتنى به: إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2011)، ط3.
40. مسلم ابن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1955)، ط3.
41. مصطفى التميمي، جزء من كتاب مباحث في علوم القرآن، فصل: تحقيق مسألة قتال الملائكة في بدر، دار سون شاغ للنشر (SON ÇAG)، أنقرة، ط1، 2023م، ص (77-109).
42. منجد محمد أبو بكر، (ملكية القدس والأقصى بين المسلمين واليهود، دراسة قرآنية لغوية) مقدم لمؤتمر (القضية الفلسطينية إلى أين؟) والمعقود في الجامعة الأردنية في عمان عام 2020م، ونشرت أعمال المؤتمر في كتاب صادر عن دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2020م، ص (354-393).
43. ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: فريق من الباحثين، دار (إسطنبول: اللباب للدراسات والتحقيق، 2023)، ط1.

ISSN : 2410-1818

مجلـــة الأندلـــس للعلـــوم الإنسانيـــة والاجتماعيـــة
مجلـــة دوليـــة شهـريـــة علميـــة محكمـــة
الترقيـــم الدولي الإلكتروني : ISSN 2410- 521X
الترقيـــم الدولـــي الورقـــي :ISSN 2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلـــة مفهرســـة فـــي المواقـــع الآتيـــة :

العام	2020	2021	2022	2023	2024
معامل أرسيف	0.0366	0.2692	0.1954	0.3759	0.3068
معامل التأثير العربي	1.60	1.60	1.73	1.25	1.55